في تاريخ الأدب المصري

٢ ـ ابن النبيـــه

للأستاذ أحمد أحمد بدوى

— ٣ —

اتصل شاعرنا كما ذكرت بطائفة كبيرة من عظماء عصره، فمدح الخليفة الناصر، أحمد أمير المؤمنين، واتصل بالملك العادل أخي صلاح الدين، واتصل كذلك بالقاضي الفاضل والوزير صفي الدين بن شكر وغيرهم، ولكنه لم يتصل بصلاح الدين، ولعل ذلك كان ناشئاً عن حداثته في ذلك الحين، واستصغار نفسه أن يتصل به، مع أن صلاح الدين كان ممدوحاً للقاضي الفاضل وغيره من كبار رجال العصر. غير أن أوثق الاتصال كان بينه وبين الملك الأشرف الذي أصبح به مختصاً معروفاً، كما عرف المتنبي بسيف الدولة، يسجل له مفاخره، ويحصي ما يناله من الخير والنصر، ويهنئه بالعيد إذا حل العيد، ويصف له القصور إذا بنى قصراً جديداً، وإذا أعان الحجاج سجل له يده، ويظهر أنه قد نال الخير والسعادة على يد الملك الأشرف، وإن كنا نراه في بعض الأحيان يشكو إليه، ويذكر ما قد يصيب علاقتهما أحياناً من الفتور، وذلك ما لابد منه، ولا سبيل إلى التخلي عنه، فهو يقول له:

كم اصطنعت وكم أوليتني حسنا ... فليس يبلغ أقصى الشكر أدناه
دامت علينا به النعمى وأمتنا ... مما نخاف أدام الله نعماه
أرجو لقاك لآمالي ومنزلة ... فأنت لي سبب، والرازق الله
فأغنني يا ابن ذي المجد العلي وكن ... لي مسعداً في الذي أرجو وأخشاه

وأحياناً كان ابن النبيه يرسل إليه يطلب حاجة يجعل شفيعها غلاماً جميلاً يستقضي تلك الحاجة، ويحفظ له التاريخ من ذلك أنه أرسل هذا الغلام وكتب معه هذا الدوبيت:

أيقنت بأن حاجتي ليس تضيع ... منذ قدمها مهفهف القد بديع
في خضرة خده لعينيك ربيع ... ما أقبح رده وذا الحسن شفيع

وكثيراً ما كان وهو لدى ولي نعمته الملك الأشرف يشتاق مصر ويرسل إلى أهلها السلام، ثم ينتقل إلى المدح، وكأنه يذكر الممدوح بغربته وفراقه وأنه إنما تحمل ذلك من أجله هو، وفي ذلك ما فيه من تكثير لمورد رزقه وإغداق النعمى والهدايا عليه، واستمع إليه يخاطب أهل مصر:

إن عينا منكمو قد ظمئت ... قد سقاها الدمع حتى رويت
آه من وجد جديد لم يزل ... وعظام ناحلات بليت!
سا كني الفسطاط لو أبصرتكم ... جليت مرآة عين صديت
إن أعاد الله شملي بكمو ... سعدت آمال نفس شقيت
إن أرضا أنتمو سكانها ... غنيت عن أن تقولوا: سعيت
فوجوه كرياض أزهرت ... ورياض كوجوه جليت
بأبي منكم غزال، مهجتي ... بظبا ألحاظه قد غزيت
بلغيه يا نسيم الريح عن ... مهجة الشتاق ماذا لقيت

ثم يقول:

إنما مدحة عيسى جنة ... عندها أوطاننا قد نسيت

فكأنه يقول له اذكر أني مفارق لوطني فكيف أنساه إلا إذا لقيت منك ما يغنيني عن ذكره، ونحن لا نشك في أنه لائق من الأشرف كل إعزاز وإكبار. وكان الأشرف يعتقد في شاعريته ويثق بها، فكثيراً ما كلفه نظم الشعر على البديهة في أي موضوع يراه، وكثيراً ما قام مقامه في تدبيج الرسائل بالشعر على لسانه، ولقد كانت تلك المنزلة الرفيعة التي نالها مدعاة إلى أن يقول:

أنت قربتني فأغليت قدري ... أنت خولتني فأغنيت فقري
فليجد من يشا ويبخل من شا ... فحرام عليه ذمي وشكري

بل كان جمع ديوانه قياماً منه بواجب الشكران وتسجيلاً للبد التي أسداها إليه ـ كما حدثك هو في صدر الديوان

— ٤ —

نستطيع أن نقول إن شعر ابن النبيه يعطينا صورة صحيحة لعصره، يحدثك عن طابعه وعن أهم ما نعمه من الأحداث، وإذا أنت ذهبت تنقب عن ذلك رأيت أن أهم ما يميز العصر الروح الحربية التي سرت فيه، وروح القتال الذي كان على قدم وساق

كان العصر عصر حرب مشبوبة بين الصليبيين من الأوربيين وبين المسلمين وملوك المسلمين، كما كان عصر نزاع بين بني أيوب على الانفراد بالسيادة والسلطان بعد أن مات كبيرهم صلاح الدين، ومن أجل هذا كان أظهر صفة بارزة يمدح بها شاعرنا ممدوحيه شجاعتهم في الحرب واستبسالهم في المواقع. فهو يقول لمن يمدحه:

مليك إذا سار بين الصيو ... ف ترى البدر بين اشتباك الكواكب
وتزأر من تحت ذاك الركا ... ب أسود لها من ظباها مخالب

فتلك الهادم زهر النجو م ومعتكر النقع جنح النياهب

ويصف جيش ممدوحه بقوله :

وأسد على جرد لها مثل فعلهم إذا ما تجلى الموت فى الحلل الحمر
دماء أعاديهم شراب رماحهم
وأجسامهم هذى إلى الذئب والنسر

فاذا شئت أن ترى صورة من صور النزاع بين الأفرنج الذين كانوا يبغون الاستيلاء على مصر قلب الدولة الاسلامية وبدأوا غارتهم بالاستيلاء على دمياط فاستمع إليه يقول :

وتحت غيل القنا آساد معركة لها ثبات وفى الهيجاء وثبات
مستشرفات بآذان موكلة لها إلى الثغر من دمياط حاجات
الويل للروم والأفرنج من ملك له من النصر والتأييد عادات
أين المفر لسرب الروم من أسد ضار له من رماح الخط غابات
دمياط طور ونار الحرب موقدة وأنت موسى وهذا اليوم ميقات
ألق العصا تتلقف كل ما صنعوا ولا تخف من حبال القوم حيات
طأهم بجيشك لا تحفل بكثرتهم فانهم لبغاث الطير أقوات
أصبتهم بسهام الرأى من حلب وللمكائد من بعد إصابات
فطهر الله ذاك الثغر من قلح أصابه ، وانجلت تلك الثنيات
لله من ثغر دمياط وبرزخها فتح له تفتح السبع السموات
شرحت صدر رسول الله وانحسرت بنصرة الدين والدنيا غمامات
فللرماح كلاهم أو صدورهم وللصوارم أعناق وهامات
تخلق البحر ذاك اليوم من دمهم والموج ثوبه تلك السرات
عكا وصور إلى رؤياك عاطشة فانهض فقد أمكنت منهن خلوات
الله أكبر أن تمسى مزاحمهم تتلى ، وتنسى من القرآن آيات

وكثيراً ما كان يؤكد لسيده أنه سوف يهزم عدوه وينتصر عليه ويملك بلاده ، بل وسوف يؤاتيه النصر حتى يملك القسطنطينية عاصمة بلادهم ، ولقد كرر ذلك مراراً ، حتى إنك لتستطيع أن تفهم من هذا التكرار والتأكيدات الكثيرة بأنه سوف يفتح تلك البلاد أن هذا كان فى صدر ممدوحه أملاً قوياً يتمنى أن يناله وأن يتم على يديه ، حتى قال له ابن النبيه :

ستفتح قسطينة عنوة وما كان للروم منها بغارب
كأنى بأبراجها قد هوت وصخر المجانيق فيها ضوارب
وقد زحف البرج زحف المزو س اليها يجر ذيول الكتائب
وليس الكهانة من شيمتى ولكن حزبك بالله غالب

وكثيراً ما مناه بهذا الأمل وأكد له أنه سيناله ، كذلك فى شعره صورة حية للنزاع الذى كان بين بني أيوب ، ولقد كان ابن النبيه يؤمن ويوقن بأن الخير كل الخير إنما هو فى اجتماعهم ووحدتهم ، لأن الأوربيين فى ذلك الحين كانوا يهاجمون الشرق ، ثمن الخير أن يتحد ملوكه لدرء هذا الخطر عنه ، ولقد كان الغيرون يتهزون كل فرصة خلاف بينهم ليشبوا نار الحرب عليهم ، ولذلك كان ابن النبيه صادقاً يوم قال متحدثاً عن بنى أيوب أولاد شاوى :

آل شاوى شهر الصيام جلالا وأبو الفتح منه ليلة قدر
معشر فى وفاقهم كل خير مثنا فى خلافهم كل شر

وكان يوقن بأن صلحهم واجتماعهم يبعث القوة فى نفوس الشرقيين ، ويبعث الضعف والخوف فى نفوس الأوربيين كما قال بعد صلحهم :

اليوم تصلى صفحات العدا نيران حرب حرها لافح
اليوم دار الشرك مبذولة يأوى لها الصائح والنائح
موسى جزاك الله عن دينه خيراً فما أنصفك المادح
سعيت فى جمع شتات العلا لله هذا العمل الصالح

وشعره بعد ذلك يحدثك عما أصابه الملك الأشرف من فتوح ونصر فى بلاد الشرق ، هذا وإذا ذهبت تلتمس العلاقة التى كانت بين الأشرف والخليفة رأيت أن الخليفة العباسى كان يتمتع بسلطة روحية كبيرة ، وإن لم يكن له من الأمر شىء فى السلطة السياسية ، فكان الأشرف يحرص على أن تظل العلاقات بينهما قوية متينة ، ويبعد مراسلة الخليفة له منة وفضلا كبيرين

ولقد ورد له خطاب مرة من الخليفة ، فطلب من ابن النبيه أن يجيبه فكتب إليه الرد شعراً لأن الخليفة كان أديباً شاعراً :

سيدى سيدى كتابك أحلى من زلال على فؤادى الصادى
خلت فيه قميص يوسف لما ألصقته أنامل بفؤادى
كرر اللثم يافى ، وترشف منه آثار فضل تلك الأيادى
نعمة سميت كتاباً مجازاً انابت وهى السحاب النوادى
كثرت حاسدى حتى تمنيا ت جفونى من جلة الحساد
قالت العين وهى تخرج درا فاخراً من بحار ذاك المداد
أنا أفدى بياضه ببياضى أنا أفدى سواده بسوادى
أنا عبد الأمام أحمد بحير لى من نسبتى إلى أجدادى
فعليه السلام ما غرد الطيـ ـر وغنى شاد ، ورجّع حاد

وفى الحق أن الأمراء من الأتراك مهما استبدوا كانوا يقرون للخليفة بالسلطة الروحية ولا ينازعونه فيها ما

(يتبع)

أحمد أحمد بدوى